

عمر بهاء الأميري: نظرة خاطفة إلى شعره

د/ ن. عبد الجبار

أستاذ مشارك، قسم العربية، كلية الفاروق، كالكوت، كيرلا

Email: drnabduljabbar@yahoo.in

ولد الأستاذ عمر بهاء الأميري الشاعر السوري سنة 1918م بحلب الشهباء مدينة الأمير سيف الدولة والشاعر أبي فراس الحمداني والمدينة التي غرّد فيها أبو الطيب المتنبي أجمل قصائده. تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في حلب، ومنها ارتحل إلى باريس، والتحق بجامعة سوربون، وتخصص في الأدب وفقه اللغة، ثم عاد إلى الوطن والتحق بكلية الحقوق بجامعة دمشق، ونال شهادة المحاة. بدأ حياته العملية مدير المعهد الإسلامي بدمشق، وقام بتدريس الأدب والعلوم الاجتماعية، وحظي بحب الطلاب والدارسين وأعضاء هيئة التدريس. ثم مارس المحاماة والقضاء، فكان محامياً وقاضياً مثالياً في الدفاع والقضاء والعدل وإحقاق الحق وإبطال الباطل. ومن ثم عين سفيراً للبلاد في باكستان، حيث تعلم اللغة الأردية، وقرأ ديوان الدكتور محمد إقبال وتأثر به، وبذل أقصى جهده لنشر اللغة العربية في باكستان، وطلب الأساتذة من سوريا، وأعد معهم المناهج الدراسية ومقرراتها، ثم تقلد منصب سفير المملكة العربية السعودية فكان سفيراً موفقاً ناجحاً. وعاش في رحاب الحرمين الشريفين متمتعاً بنفحات قدسية مباركة، وعاد إلى بلاده للتفرغ للبحث والدراسة والدعوة والتوجيه الإسلامي. وكان يهتم بشؤون العرب والمسلمين وقضاياهم خاصة قضية فلسطين وشارك في معارك إنقاذهم عام 1948م.

وأخيراً سافر إلى المغرب وهو يحمل رسالة جديدة، فأصبح أستاذاً للأدب والحضارة والتيارات الحديثة في جامعة فاس، ثم في دار الحديث الحسنية بجامعة القرويين، فأفاد وأنتج وخط قلمه السيل مؤلفات ودواوين، وهي أروع ما كتب في عصره. ودعي أستاذاً زائراً في الجامعات العربية والإسلامية وألقي



محاضرات وأحاديث وكلمات وقصائد ملؤها العلم والفضل والإيمان، وشارك في المؤتمرات العالمية والندوات العلمية الدولية، وكانت له فيها مساهمات مثمرة نافعة، ولا يزال تقطف ثمارها الأوساط الأدبية والعلمية في بلاد العرب والإسلام. لحق الأستاذ الأميري رحمه الله بالرفيق الأعلى في شوال 1414 الموافق أبريل 1994 م بالمملكة العربية السعودية، ودفن بالبقيع في المدينة المنورة.

وكان من أعظم الشعراء في هذا العصر، وله عشرون ديواناً ما بين مطبوع ومخطوط ومن أشهرها "مع الله" و"ألوان طيف" و"من وحي فلسطين" و"أشواق وإشراق أبي" و"أمي" و"ملحمة الله" و"الأقصى" و"فتح القمة". يتجلى في كل بيت من شعره ومقطوعة من ديوانه الفن الرفيع والجمال البديع والروحانية الشفافة والقدرة الشعرية النادرة، قل ما نجد لها في شعر معاصريه. فإن الشعر الذي قرضه الأستاذ الأميري كان هدي لقلبه ملؤه الحب والود والتجربة النفسية والهمسات القلبية الجياشة. يقول عمر بهاء الأميري في ديوانه "مع الله":-

شمت في غوره الرهيب جمالك	مهما أمعن الدجي ونحالك
من جمال، أنست فيها جمالك	وتراءت لعين قلبي برايا
من شفاه النجوم يتلوا الثنالك	وترامي لمسمع الروح همس
واحتواني الشعور أني حيالك	واعتراني قوله وخشوع
ساجدا واجدا، ومن يتمالك؟ ¹	ما تمالكت أن يخز كياني

يقول الدكتور محمد اجتباء الندوي: "ومن مميزات الأستاذ الأميري في جمال تعبيره وفنه أنه يأخذك معه بقصائده ومقطوعاته إلي متحف فيها أجرام ورسوم وصور ولكنها حية تتحرك معك وتتفاعل معك وأنت تراها كأنها معك تمشي

¹. ديوان "مع الله" نقلا عن "الأستاذ عمر بهاء الأميري" للبرفسور، محمد اجتباء الندوي، مجلة "المجمع المعلمي الهندي" يونيو 1994 ص:30

وتجري وتناجي وتناغي، وتشعر بأنك مع أشياء بديعة نادرة جديدة لم تعثر عليها من قبل".¹ وفي شعر الأميري نلاحظ التجديد والتركيز علي الواقع ووقائع المجتمع ومشكلات البيئة والحكاية عن التجربة. وفي شعره "مع الله" نلاحظ هذه النزعات ولها الأثر الواضح في نفس القارئ والسامع إذ يقول:-

"مع الله في الفلك المستطير وفي الشمس تجري إلي مستقر
مع الله في البحر ملح أجاج مع الله في سلسبيل النهر
مع الله في نسيمات الربا ح اللواقح تخطر بين الشجر"²

وله ولع خاص في أمة الإسلام وبخاصة بفلسطين وقضيتها والنكبة ومكائد الأعداء، وقد رآها بأم عينيه فنظم قصائد وصدرت باسم " من وحي فلسطين". يقول فيها:

فلسطين يا آية الله في الوجود، ويا روضة من سناء
مقام "الخليل" وعز المقام وجل "الخليل" أبوا الأنبياء
وحضن "البتول" ومحرابها ومهد " المسيح" صفي السما
ومسرى رسول هدى العالمين ومعراجة الفن يعلوا العلاء."³

وفي ديوانه "مع الله" أودع مجموعة من أشعاره يتوجه بها إلي الله ويتوجه أيضا إلي حالات نفسه: من رضاء وثورة وهدوء وقلق وإشراق وظلمة ورفرفة روحية وتوقد جسدي. كلها ترانيم إلي الله وابتهالات، ورغبة حارة إلي الله ألا يتخلى عنه في أية حالة من حالاته، حتى حالات الضعف والهبوط. وفي هذا الديوان نلاحظ أدبا صادقا وأسلوبا جديدا ونزعة إلي التطوير وفتح باب جديد في ميدان الأدب الإسلامي. وهو مثال للسمو الروحي والصفاء النفسي

¹ . نفس المرجع ص: 30

² . "مع الله" ، ص: 32 نقلا عن "جوانب الإبداع – في شعر الأميري"، ملحق "الرائد" للأدب

الإسلامي، ربيع الأول 1414، ص: 30

³ . مجلة المجمع العلمي الهندي، ص: 33

والانفعال الوجداني بالفكرة الدينية الصادقة. وهذا يقع في 180 صفحة. من القطع المتوسط: وقد طبع طبعا أنيقا وأخرج إخراجا جميلا يليق بشرف موضوعه. و أما قالب الشعري السائد الذي اختاره الشاعر للتعبير عن أفكار فهو قالب المقطوعة القصيرة، وإن كان في الديوان حوالي اثني عشرة قصيدة طويلة. وهو يتميز بالتجديد والواقعية في الفكرة والأسلوب والتجربة، أيضا يتميز بالتجديد والواقعية في الفكرة والأسلوب والتجربة، أيضا يتميز بالتحديد في المعاني والقالب وملاحظات متفرقة. فيقول قاضي عبد الرحمن الأريافي في مقالته "جوانب الإبداع في شعر الأميري": "فأما الفكرة فنعني بها الفكرة العامة للديوان. والقضية الكلية التي يخدمها ويدعوا إليها، هذا من جانب، ومن جانب آخر الأفكار الجزئية المنبثقة في كل قصيدة ومقطوعة فيه. إن الفكرة العامة للديوان هي من ناحية: التعبير عن الصفاء الروحي، والسمو النفسي، ذلك السمو الذي يرينا كيف يصبح الطين تحت ظل الإيمان روحا رقيقة رفاقة، تسمو علي كل الماديات، وتفلت من نطاق الجذب إلي الأرض فتخلق في سموات الحب والسعادة بعيدة عن عالم الكراهية والشقاء، قريبة من الملائكة وأرواح الصديقين. أما التجديد والإجادة في الصورة والمعاني والقالب، فإننا أولا نعني بالصورة والكلمات التي نقل بها الشاعر أحاسيسه. والجمل والتعبيرات التي صور لنا بها تجاربه، ونستطيع أن نؤكد من أول وهلة أن الشاعر مجدد في هذا الجانب كل التجديد: ومن الناحية الموسيقية نجد لكلماته رنينا موسيقيا عذبا، ونجد لها انسجاما وتكاملا حتى إنها تكون معا عذبة رقيقة."¹

وفي الشعر الأميري نحس السمو والراحة ولاطمئنان والإيمان الصادق. وهو يملأ قلوبنا الإيمان والرضا، وقراءة قصائده تعطينا عزاء في حالات الضيق والاضطراب، وهو يصف العلاج لكل داء نفسي ويفسر تفسيراً مقنعا لما يبدو في الحياة متناقضا، وللقضايا العلمية والفكرية التي قد نستعصى في كثير من الأحيان حتى علي العلماء والمفكرين. وفي ديوانه يهدف الشاعر إلي فكرة

¹ . ملحق الرائد للأدب الإسلامي ، ربيع الأول 1414، ص:26

تصوير رائع للحقيقة الخالدة المركبة في طبيعة النفس البشرية، وهي الصراع بين غرائز الأهواء للعالم وبين المبادئ المثلى العليا. وهو يبين ضعف الإنسان إلى أبعد حتى من قدراته الهائلة، وكيف يستدرج الإنسان إلى طريق الخطيئة والانحراف. و تصور استجابة النفس البشرية حتى توشك أن تقول أن قدرة للنفس الضعيفة علي مقاومتها؟ ثم تصور لنا انتصارا للمبادئ على نوازع الشر ومهاوى الضلال تصويرا يجعلنا نوقن أن نفس المؤمن لا تهزم وأن الشيطان علي الدوام يجتو في النهاية عن قدمي المؤمن الصادق في ضراعة ذليلة وتسليم مخذول. وقصيدته "ضرائع تائر" ترينا هذا الجانب علي خبر جهوده كما أن مقطوعات "شيطان" و"صراع" و"فطنة" وغيرها تبرز لنا هذه الناحية في قوة وروعة. فالأميري من حيث ثقافته الحديثة، ونزعه المتطورة الواعية يري في معجزات العلم ومظاهر الطبيعة وغرائب الحياة والأحياء، وقوانين الكون ونظامه البديع. يري في كل هذا مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية، وبرهانا علي التدبير والعناية. وقصيدته الرابعة "مع الله" ترينا نظرة المؤمن الصادق وشعوره بأن القدرة الإلهية تتجلي في كل ما يراه وكل ما يسمعه، بل كل ما يحس به من حوله. وهو يعتني بالشعائر الدينية إعتناء بالغ كما نلاحظ في مقطوعاته "الكعبة" و"صلة" و"رب".

مثلا:-

الكعبة السماء في مذهبي	قيمتها ليست بأحجارها
قدسية الكعبة في جميعها	أمتنا من كل أقطارها
وأنها محور أمجادها	وأنها مصدر أنوارها
وكعبة المؤمن في قلبه	يطوف أني كان في دارها ¹ .

نجح الشاعر في سرد كله أمام القراء في كساء أسلوبه الجديد وعاطفة قوية فيجعلها جديدة كأننا نقف عليها لأول مرة. وشعره خير مثال للتجديد والإبداع في

¹. "الكعبة"، ص: 115

واقعية الفكرة والتجربة والأسلوب. وفي الأسلوب أيضا هو واقعي، يعني أنه يغزف عن الكلمات الغريبة، بل هي واضحة كل الوضوح مفهومة لكل من أوتي من الثقافة حظا يسيرا. وشعره البديع "في وحدتي" مثال كلاسيكي لبعض مظاهر الواقعية بل إنها من خير الشعر الواقعي. إن هذه القصيدة تصور تصويرا رائعا الحالة النفسية للإنسان المتوحد وما يختلج في ذهنه من الأفكار الغامضة والواضحة، وما يدور في خلد من المشاعر والأحاسيس المختلفة. كما أنها تصوير جميل للواقع المادي الذي يحيط بإنسان منفرد ليلا في غرفته المنعزلة. وهي تصور كل ذلك بأسلوب واقعي جميل يدقق في وصف الأشياء البسيطة حتى تصبح واضحة كل الوضوح ويعطي صورة كاملة تكاد تكون لوحة دقيقة لذلك الإنسان وما يحيط به.

حينما كان في كراشي، ذات ليلة استيقظ هائج النفس، نائر الشباب. وكان قد تعرض في تلك الأمسية لإغراء كثير. ذكر إقامته على التقوى في باريس وهو طالب. وذكر مواقفه في الحج في مثل هذه الليلة من عام مضى. وذكر ما تعرض له قبل ساعات وفي غمرة الحيرة وسوار النفس وأوار الظمأ أنشأ قصيدة طويلة. ولما كاد ينبج الصبح هدأت نفسه بعض الشيء وعاد يراود الكرى، وعرف فيها بعد هذه ليلة عرفة. ومن هذه القصيدة:-

كيف أنجوا يا خالقي من شبابي	عارم عاصف التوثب ضاري
مشبد بكل ذرات جسمي	مستفز كوامن الأوطار
كلما رمت كبتة، ثار جهلا	وتخطي عقلي وأعيا وقاري
وأنا منه، ما كبحت هواء	في جموح وحدة واستعار
كيف أنجوا، وإنه مستقر	في كياني، وفي صميم نجاري
والليالي الطوال مرت سهادا	وعنادا، ودمعي الممدار
وجهادي في حلقة الليل نفسي	وذيادي، وعزمي المغوار

وغلابي ضروب كيد صحابي
واعتزازي بدحرهم وانتصاري
وثباتي، وقد ترامي لداتي
واعتمادي بعفتي، وفخاري¹

أما القافية والوزن فإن الشاعر قد التزم بعمود الشعر العربي وبحوره المعروفة علي أن أكثر البحور في أشعاره هو بحر "المتقارب" بتفعيلاته الثلاث " فعولن". ولا شك أن هذا البحر من حيث دلالاته من أقدر البحور علي التعبير عن الفكرة العميقة والعاطفة.

هذه لمحة سريعة عن الصور والبديع والمعاني في شعر عمر بهاء الأميري. وفي الجملة أن الشاعر يستعمل كلمات الصوفية ويدني القراء بحياة صوفية الرموز التي كان يقصد إليها المغالون من الصوفية. ويستطيع القارئ أن يجد في أشعاره كثيرا من المعاني الرفيعة والصور العذبة، ويرى أن الشاعر ينقل إلينا في صدق تجاربه الذاتية التي عاشها وانفعل بها، وأيضا يلمس إلي أي حد كان الشاعر أميناً صادقاً في نقل تجاربه إلينا بصراحة وبلا مواربة.

المراجع والمصادر

1. الأستاذ عمر بهاء الأميري: شاعر سوريا المعاصر العظيم، الأستاذ الدكتور محمد اجتباء الندوي، مجلة المجمع العلمي الهندي- المجلد السادس عشر، يونيو 1994
2. جوانب الإبداع في شعر الأميري، القاضي عبد الرحمن الأرياني، ملحق الرائد للأدب الإسلامي، الأعداد 69-70-71، ربيع الأول 1414هـ
3. منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، (بدون اسم الناشرين والتاريخ)، مجلة الصحوة، دار العلوم حيدرآباد، الهند
4. ديوان مع الله: الأستاذ عمر بهاء الأميري، الرباط، المغرب.
5. من وحي فلسطين: الأستاذ عمر بهاء الأميري، دار الفتح، بيروت.

¹ . "المنهج الفن الإسلامي" لمحمد قطب، ص: 285-286